رأي وحوار

الإنسان بين شريعتين

رؤية قرآنية لمعرفة الذات ومعرفة الآخر

عبد الحميد أحمد أبوسليمان*

تمهيد

يولد الإنسان مزوداً بالعقل والإدراك الذي ميزه الله به عن سائر المخلوقات، وهو ذلك التميز الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا" (البقرة:31) فليس المقصود –فيما أرى هنا– تعليم آدم منطوق أسماء الأشياء، فذلك مما لا يدل عليه تكوين الإنسان وقدرته كما فطره الله، ولأن معنى ذلك معرفة أسماء الأشياء التي لم يرها أبونا آدم في حالته الحضارية البدائية[1] إلى أن تقوم الساعة، وبكل اللغات، ووقوع ذلك على تلك الهيئة هو أمر ليس له أثر في تاريخ الإنسان ولا يوجد عليه دليل محسوس فيما يعرف من طبائع البشر وقدراتهم.

فإذا علمنا أيضاً أن منطوق الاسم لا معنى ولا قيمة له إذا لم يكن هناك وعي بمعناه وبدلالته، وهو العلم بطبيعة المسمى، وبكنهه، وبوظيفته، بشكل من الأشكال، فإن المعنى الممكن هنا لابد من أن ينصرف إلى قدرة الإنسان على الإدراك، وقدرته على تجريد المشتركات التي تضم المفردات، وردها إلى أصول وأجناس –وهو من الواضح في أصل خلق آدم حين سُوّي ونفخت فيه الروح– فالكراسي أو المباني أو الحيوانات – على سبيل المثال– تتعدد أشكالاً وألواناً ومظاهر وتراكيب، ويختلف كل نوع واحد منها عن الآخر، إلا أنها في مجموعها ترجع إلى تشابهات وأبعاد تضم مفرداتها بعضها إلى بعض، وتجعلها في أجناس وأنواع، فهناك كرسي المكتب، وكرسي الاستقبال، وكرسي السيارة، وهناك الكرسي الكبير، والكرسي الصغير، وهناك

---

* دكتوراه في العلوم السياسية ورئيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي ورئيس مؤسسة تنمية الناشئة /الولايات المتحدة الأمريكية.

1 نوعية إيمان أبينا آدم وصلته بالله هي قضية وجدانية لا علاقة لها بالقضية الحضارية الثقافية العمرانية المادية، ومن ذلك أن البدوي البسيط في الصحراء قد يكون أفضل إيمانًا وأنقى سريرة ووجدانًا من بعض العلماء المبرزين الملحدين المستكبرين في أرقى العواصم الحضارية العمرانية في العالم.

الكرسي الخشبي، والكرسي المعدني، والكرسي البلاستيكي، وهناك أشكال وألوان وأحجام من الكراسي، لكن الذي يجمعها تحت هذا المسمى جميعاً أنها أداة للجلوس والراحة. وقدرة الإنسان على الإدراك والتمييز والتجريد هي أصل قدرة العلم والمعرفة عند الإنسان، وقدرته على توليد الأفكار والمبتكرات، وتوليد رموز أسمائها في اللغات الإنسانية المختلفة، وفي رأيي؛ فإن قدرة الإنسان على الإدراك، وقدرته اللغوية التي مكنته من إيجاد الرموز وإطلاقها على المسميات، وهي الأسماء، وقدرته على استخدامها، إنما هو أصل قدرة الإنسان الحضارية والعمرانية، ومن دون قدرة الإنسان على صياغة الرموز واستخدامها لم يكن باستطاعته الكتابة، ولا تطوير العلوم والمعارف، ولا الاستخلاف في الأرض، وإن ذلك هو المقصود بـ (تعليم الأسماء) الذي أشار إليه القرآن الكريم، وميز الله به الإنسان.

ومن ضرورات العقل والإدراك اللذين ميَّز الله الإنسان بهما، ملكة التفكُّر والتدبر والبحث والنظر، وتوليد الأفكار، وتصميم إبداعات العمران، وإتقان الصنعة في حياته، واتخاذ دليل له في دروب الحياة، يعينه على فهم معنى الحياة، وتحمل أعبائها ومسئولياتها.

وكان لابد للعقل والإدراك الإنساني –على ما هو عليه من إدراك وتفكر– من أن يتساءل عن طبيعة ذاته، وعن معنى وجوده وعالمه والغاية منه، ويتساءل عن مصدر هذا الوجود وهذا العالم، وعن معنى مفرداته وعلاقاتها وتفاوتها، وعن طبيعة علاقاته بها وعن مصيره، ومصير عالمه. وهذا التساؤل في إدراك الإنسان وجوهر ضميره هو أساس الجانب الروحي في الإنسان، وهو مصدر الدين الذي يكوّن جانباً أساسياً من حياته ومن تطلعاته، ومنه يتأتى ويصدر هذا التساؤل وهذا البحث الديني الفلسفي والضميري، ويأخذ بتلابيب كل فرد إنساني بشكل أو بآخر، وهذه القضية هي الإشكال الذي شغل المفكرين والفلاسفة –على مرّ العصور– في مختلف أبعاده وغيبياته ومعمياته، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو ما جاءت بشأنه رسائل الأنبياء وبُعث من أجله الرسل، وهو الأمر الذي تعرضت لقضاياه مختلف العقائد والأديان والفلسفات.

الوعي الإنساني: طبيعته وحدوده

لقد كان من الواضح –وما يزال –أن الإنسان– وهو الجزء المحدود بعقله ومنطقه وإدراكه– لا يستطيع أن يدرك الكلي والمطلق وغير المحدود، ومن هنا جاءت حاجة الإنسان إلى معالم تضيء له مجهولات دروب الحياة، وتهديه إلى غاياتها، وتبعث في نفسه الأمن والطمأنينة، وتفسر له، وتعرفه معنى وجوده، والغاية من هذا الوجود، ومآل هذا الوجود، والسبيل إلى التعامل معه وطلب السلامة في مآله، فكانت الأديان والرسالات والعقائد الغيبية –على مر العصور– هي مصدر هذه الهداية، ومنبع الأمن والطمأنينة، في هذا المجال، للنفس البشرية.

وعلى الرغم من إيمان البشر بما يتوارثونه ويؤمنون به من العقائد والأديان، فإن العقل الإنساني وما أودعه الله فيه من فطرة السعي نحو الفهم والإدراك والمعرفة؛ كان لا بد له من التساؤل والملاحظة ومحاولة الفهم العقلي حيال كل شيء، فإلى جانب الإيمان الوجداني كان البحث العقلي عن مصدر الوجود، ومعنى الوجود، وغاية الوجود، ومصير الوجود، في حدود إدراك العقل ومنطقه، وهي تساؤلات كانت محلَّ عناية الفلسفة والفلاسفة.

والفلسفة بهذا المعنى إنما هي تعبير عن فطرة الإدراك المنطقي، وطلب المعرفة الحسية، فإذا أدرك الإنسان والمفكر والفيلسوف طبيعة هذه القضية حينما يتصدى لها، وأيقن محدودية منطقه وإدراكه الجزئي بشأنها؛ فإن البحث والتفكر يكون وسيلة إلى نور الممكن من المعرفة، وأداة موصلة إلى زيادة الطمأنينة والإيمان، وعندها لا تكون المعرفة العقلية مناقضةً للمعرفة والطمأنينة الإيمانية الوجدانية.

لقد كانت المعرفة الرشيدة عند الملائكة مدعاة للإيمان والطمأنينة؛ وذلك حينما تساءلوا –بحكم ما يعلمون من طبيعة الإنسان الملموسة في طوره الحيواني، قبل أن يسويه الله ويضيف إلى تكوينه الروح والعقل والعلم– عن قدراته وصفاته الحيوانية في الإفساد والظلم والعدوان، فكانت إجابة الخالق صاحب القدرة والعلم الكلي المطلق مدعاةً إلى طمأنتهم وتعزيز إيمانهم وتقبلهم، فقال تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْملائكَة إِنِّي جَاعلٌ في الأَرْض خَليفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فيهَا مَنْ يُفْسدُ فيهَا وَيَسْفكُ الدّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبّحُ بحَمْدكَ وَنُقَدّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائكَة فَقَالَ أَنْبئُونِي بأَسْمَاء هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادقينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا علْمَ لَنَا إلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَليمُ الْحَكيمُ" (البقرة: 30–32) أما إبليس فقد غرّه

علمه الجزئي وأعماه عن محدوديته ومحدودية إدراكه ومنطقه فكان ذلك سبباً في استكباره وكفره وضلاله، وهو حال كثير من "العلماء" الملحدين الذين أصبح علمهم الجزئي سبباً في ضلالهم وكفرهم واستكبارهم: "إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ، فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ، قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ اَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنْ الْعَالِينَ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ" (سورة ص: 71-76)[2] فَعلْمُ إبليس أن مادة خلقه –وهي النار المدمرة– هي من نوعٍ أرقى من مادة الطين المنحطة الخامدة التي خُلقَ منا الإنسان أعماه عن محدوديته نسبة إلى علم الله المطلق، وحكمته وقدرته المطلقة، وبما سيميز الله به الإنسان من نور الروح والعقل والإدراك. فهو الذي وهب الإنسان الإدراك والمسئولية، وهو الذي جمع فيه الروح بتساميها إلى جانب الطين بانحطاطه، فبذلك العمى والاستكبار ضلَّ إبليس وكفر.

ولذلك فالعلم الراشد المهتدي مدعاةٌ إلى التفكير والتدبر والطمأنينة والإيمان، وتساؤل الفطرة وبحثها وتنقيبها وتدبرها هو السبيل إلى الرشد وإدراك الحدود المؤدية إلى الاقتناع وطمأنينة الإيمان، وليس صحيحاً أن الجهل وعدم التفكر والتدبر هو السبيل الأفضل إلى الإيمان، كما أنّه ليس صحيحاً أن البحث والنظر والتفكُّر والتدبر مدعاة إلى الكفر والإلحاد، فهذا لا يصح إلا في حالة من ضل عن ادراك ذاته، وغفل عن محدوديتها، وعمي عن إدراك محدودية علمه ومنطقه تجاه الكلي؛ الذي ينطق كل ما حول الإنسان دالاً على عظمته وقدرته، ودقة إحكام صنعته وخلقه، ولأن الجهل وعدم التفكر والتدبر –على أشكاله المختلفة– إذا أصبح إلغاءً للعقل والتفكر وتوليد الاقتناع، فإن ذلك في حقيقته رهب وهرب وضعف إيمان، لأن الإيمان صنو الثقة والاقتناع والطمأنينة، بحسب حال كل نفس وأحوالها ومعارفها وقدرات إدراكها؛ التي تتعلق في نهاية المطاف بإدراك عظمة الخالق ودقة صنعه وعدم محدودية قدرته، إلى جانب محدودية علم الإنسان ومنطقه. وهذا لا يتعارض مع أن ما يقع في دائرة معارف البدوي البسيط ومداركه، غير ما يقع في دائرة معارف العلماء والمفكرين في الحواضر ومداركهم، ولكنهم كلهم سواء في إدراك محدوديتهم ومحدودية منطقهم، وفي إدراكهم لعظمة الخالق والخلق.

---

[2] أنظر أيضًا الآية: (الأعراف: 12-13).

إن تقدم العلوم والمعارف في طبائع الكائنات وآفاقها لا يزال يزداد ويتسع ويفتح مجالات أوسع لإدراك عظمة الخالق والخلق، ولا يمكن إلا أن تكون تلك الآفاق مجالاً للتأمل والتفكر الذي يولد المزيد من الاقتناعات، ويبعث الكثير من الطمأنينة في النفس، ويعمق الإيمان في الذات، دون أن يغير ذلك الأمر شيئاً من الثوابت المتعلقة بمحدودية الإنسان وإدراكه ومنطقه، وعظمة الخالق والخلق وخيرية غايته.

إن أهم حقيقة في عالم الإنسان هي وجوده، إلا أن منطقه الجزئي المحدود يحتم عدم وجوده أصلاً؛ لأنه لا شيء في منطق الإنسان وعالمه يوجد من دون سبب، ولا بد لهذا المنطق من أن ينتهي بالإنسان إلى أنه يجب ألا يوجد، فلا شيء يوجد في الإنسان الملموس المحسوس من لا شيء، وهذا يعني في منطقه حتمية عدم الوجود، ولكن الإنسان موجود، وتلك أول حقيقة وأهم حقيقة يعيها ويلمسها في ذاته وكيانه، وفي ذلك تعارض بين وجود ولا وجود، والإشكال يكمن هنا لا في الوجود؛ بل في محدودية منطق الإنسان، ومحدودية إدراكه. فالوجود لا يخضع لمنطق الإنسان، لكنه يخضع لمنطق أعلى من منطقه، وسوف يدرك ذلك ويعلم أبعاده وأبعاد منطقه حينما تنتهي رحلة حياته وامتحاناتها، وحينما ينتقل إلى العالم الأعلى الذي فيه: (ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)،[3] "بَلْ كَذَّبُوا بالْحَقّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ في أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا منْ فُرُوجٍ، وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فيهَا رَوَاسيَ وَأَنْبَتْنَا فيهَا منْ كُلّ زَوْجٍ بَهيجٍ، تَبْصرَةً وَذكْرَى لكُلّ عَبْدٍ مُنيبٍ، وَنَزَّلْنَا منْ السَّمَاء مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا به جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصيد، وَالنَّخْلَ بَاسقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضيدٌ، رزْقًا للْعبَاد وَأَحْيَيْنَا به بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلكَ الْخُرُوجُ، كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسّ وَثَمُودُ، وَعَادٌ وَفرْعَوْنُ وَإخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الأَيْكَة وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعيد، أَفَعَيينَا بالْخَلْق الأَوَّل بَلْ هُمْ في لَبْسٍ منْ خَلْقٍ جَديد، وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوسُ به نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إلَيْه منْ حَبْل الْوَريد، إذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقّيَان عَنْ الْيَمين وَعَنْ الشّمَال قَعيدٌ، مَا يَلْفظُ منْ قَوْلٍ إلا لَدَيْه رَقيبٌ عَتيدٌ، وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْت بالْحَقّ ذَلكَ مَا كُنْتَ منْهُ تَحيدُ، وَنُفخَ في الصُّور ذَلكَ يَوْمُ الْوَعيد، وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائقٌ وَشَهيدٌ، لَقَدْ كُنْتَ في غَفْلَةٍ منْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَديدٌ، (ق: 5- 22).

---

[3] مسند الإمام أحمد، رقم الحديث، 10172.

ولتوضيح هذه القضية فإننا نعلم أن مستوى ذكاء القطط، أو أي حيوان آخر، لا يجعلها قادرة على إدراك المعادلات الرياضية، وهذا لا يعني أن القطة غبية، وهذا لا يعني أيضاً أن المعادلات الرياضية التي لم تستطع القطط والحيوانات إدراكها لا وجود لها أصلاً، وإنما كل ما يعنيه هذا الأمر هو محدودية إدراك القطة أو سائر الحيوانات، ومحدودية إدراك منطقها، أياً كان مستوى هذا الإدراك أو ذلك المنطق، إذ من المؤكد أن المعادلات تخضع لإدراك ومنطق أعلى بكثير مما هو موجود لدى الحيوانات والقطط، وإن إنكار محدودية الخلق نسبة إلى الخالق هي من قبَل إبليس —حين عصى– هو من باب الاستكبار القبيح الذي قد وقع في شراكه بعض البشر من أهل الكبر والإلحاد.

ومن الحقائق التي يعلمها الإنسان، ويعلمها المستكبرون من "العلماء" قبل سواهم، أنه كلما اكتشف الإنسان مستوى أعلى من المنطق رأى في الأمور ذاتها ما لم يره من قبل، فكثير من حقائق العلم وخواص المواد وطبائعها وطاقاتها وإمكاناتها وما تخبئه من الخصائص والإمكانات قد تغير في البعد الذري عما كان مقرراً في البعد الحسي، فلم تعد الجوامد ساكنة خامدة؛ بل كلما اشتد جمودها وكثافتها وحسُّ خمودها أصبحت حركتها الذرية أشد وأكبر، ولم تعد المادة في بُعْد انفجاراتها الذرية والهيدروجينية "لا تفنى ولا تستحدث" بل أصبحت المادة في هذه الأبعاد "تفنى وتستحدث"، كما أن ما كان يصعب تصوره من درجات الحرارة المرتفعة جداً حتى ولو أشعلنا غابات الأرض مجتمعة، أصبح ذلك ممكناً بكمٍّ قليلٍ من المواد المشعة، وكل هذا وأكثر منه في آفاق العلوم ما يدل على محدودية علم الإنسان ومحدودية منطقه وإدراكه قياساً بعلم الخالق القادر الحكيم المطلق المتبدي للإنسان في قدراته وإحكامه في خلق الكون بما لا يستطيع الإنسان معه أن ينكره أياً كان مستوى علمه ووعيه وإدراكه "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ، سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (فصلت: 52–53) ولقد فصلت في مقام آخر[4] بعض القضايا المتعلقة بأمر الإيمان ودواعيه التي ساعدتني على طلب الفكر والتأمل سبباً لطلب الحقيقة دون خوف أو وجل.

---

[4] أبو سليمان، عبد الحميد. تأملات في ظاهرية ابن حزم وإعجاز الرسالة المحمدية. التجديد، عدد 2، فبراير 1998، الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا، ص166–173.

وبالإيمان الذي يتغلغل في أعماق النفس، ويهدي الفكر، ويسدد المسير، ويوجه السلوك، فإن يجب أن لا يتردد في مواجهة النفس بما يثور في خلجاتها من تساؤلات، وما يعصف بخواطرها من ملاحظات، لا تغير–مهما بلغت حيرة النفس تجاهها، واستعصى على العقل فهمها وإدراك الحكمة الكامنة وراءها– من القناعات الكية غنطلاقاً من إدراك النفس لعظمة الخالق، وإبداع صنعته، وقدرته وحكمته وحسن تدبيره للخلائق، وفي الوقت نفسه فإن ذلك يؤكد إدراك الإنسان التام لمحدوديته ومحدودية منطقه وعلمه، ولذلك فإنني لا أجد في تساؤلاتي ولا في تدبري ولا في حيرتي ما يتعارض مع إيماني بالله وبالرسالة وبالغيب، وأجد في التساؤل والبحث والتنقيب –بل وفي الحيرة– وسائلَ ودواعٍَ لتعميق إيماني وثقتي بالله ويقيني بعظيم قدرته وعلمه وحكمته، وهو أمر يؤكد في الوقت نفسه إدراكي لعجزي وجهلي ومحدودية إدراكي ومنطقي.

وهذا المقال هو رغبة في إشراك القارئ في البحث عن إجابة عن بعض هذه الأسئلة والملاحظات الصعبة التي تدور بخلدي وخلد كثير من الناس وتستعصي على الإدراك والفهم والمنطق، وأظنني قد دفعت بتفكيري فيها إلى تحقيق خطوة أبعد ترضي في النفس فطرة طلب المعرفة والبحث عن الحقيقة بقدر ما وهبني الله من العقل والمنطق والإدراك وحسن الاستدلال.

شريعة الغاب

والسؤال موضع التفكر في هذه المقالة يتعلق بظاهرةٍ استوقفت نظري وتأملي طويلاً وتساءلت عن معناها، وعن الحكمة الكامنة فيها، وهذه الظاهرة هي ظاهرة دورة الحياة، حيث يتحتم على بعض الكائنات لتبقى وتحفظ وجودها أن "تعتدي" وأن "تفترس" سواها، وهو ما يسمى في القانون الغربي "قانون الغاب"، فالكواسر القوية من الحيوانات والدواب على مختلف أجناسها في البر والبحر والجو لا بد لها لكي تعيش من أن تفترس سواها ولاسيما الأضعف منها من الكائنات!! حيث لا بد للأسد من أن يفترس بقر الوحش، ولا بد للذئب من أن يفترس الغزال والحَمَل، ولا بد للثعلب من أن يفترس الأرنب، ولا بد للبازي من أن يفترس اليمام والحمام. وأما عن الإنسان فحدث ولا حرج، فكم من ألوف الغزلان والأرانب والحمام واليمام والبقر والخراف والدجاج يفترس الإنسان في حياته؟ وكم من البلايين "تفترس" الإنسانية منها كل عام؟

والسؤال هو لماذا يتحتم على كثير من هذه الكائنات بأشكال مختلفة أن تعيش وتبقى على افتراس سواها وإيلامه؟ وما أثار هذا التساؤل في نفسي صرخة رعب وألم لا أنساها أطلقها أرنب هجم عليه قط، فأطلق تلك الصرخة، وهو الحيوان الألوف الخجول الذي لا تكاد تسمع له صوتاً.

بالطبع سوف يخطر بالبال تلقائياً تفسير دورة الحياة وضرورة توازن الأنواع، وما في ذلك من إتقانٍ وصنعة تخدم الإنسان، وتحفظ الحياة وتديمها، وهذه حكمة وإتقان مفهومان لنا فيما لو سلمنا بضرورة ألا يكون التوازن إلا بنظام دورة الحياة على الأرض بالترتيب والتنظيم الذي نراه. ولكن السؤال يتعلق بقدرة الله غير المحدودة الذي لو شاء لأقام نظاماً وترتيباً آخر بتوازن يدوم دون افتراس ومعاناة وألمٍ لهذه الكائنات العجماوات.

لم أملك إلا أن ألاحظ وأن أتساءل؟ ولم يكن من اليسير إدراك المعنى والحكمة الأشمل في ذلك، وحينما شاركت بعض الإخوة تلك الخاطرة وتأمل تلك الملحوظة وذلك التساؤل لاحظت خوفهم من السؤال والتساؤل، وتضمنت إجاباتهم الاعتباطية مقولاتٍ عن أهمية الألم، ودوره الضروري في بناء الحياة وتشكيلها، ولكنني بالطبع لم أفهم معنى الألم وضرورته في ما ينال الغزال من الألم بين فكَّي ذئبٍ في الصحراء، والحوت والسمك في ظلمات البحار، ولو شاء الله جلَّت حكمته لكان الأمر على غير ذلك.

وأدركت حينها أن بعض الإخوة يخلطون بين الإيمان من ناحية، وتساؤلات طلب الفهم والإدراك من ناحية أخرى، وفي رأيي فإنه لا تعارض بينهما لأن الإيمان ينبثق من الكليات والتأملات، أما التساؤلات فإنها تنبعث من التفاصيل والجزئيات، فبغض النظر عن نتيجة تساؤلي ومدى اهتدائي إلى معرفة المعنى التفصيلي أو معرفة معنى جزء بعينه عن الحياة والوجود، فإن ذلك لا يغير من إدراكي ولا من إيماني الكلي بقدرة الله وحكمته التي لا يتوجب أن يحيط بها دائماً إدراكي ومنطقي المحدود، ولكن ذلك في الوقت نفسه لا يلغي واجبي ورغبتي في النظر والتفكر والتدبر بقدر ما يهديني إليه إدراكي ومنطقي وتفكيري وعقلي؛ لأن في ذلك معرفة وتبصرة لي ما دام ذلك البحث والتأمل لا يشوبهما الكبر ولا الاستكبار.

وفضلاً عن ذلك فإن التفكر والتدبر هو الذي يهدي الإنسان إلى بلوغ أقصى مداركه، ويوسع سقف معارفه، وهو أداته لإدراك الوحي والرسالة وهديها في شئون حياته ومعاشه، وإن ذلك لا يعفيه من طلب

التحقق ومن الفهم السليم. كما يجب أن يكون العقل المهتدي موضع الحرص والثقة والتكامل مع الوحي في فهم الشريعة والتشريع وإعمالهما في شئون الحياة كما أراد الله لهما ليكونا نوراً وهداية للعالمين. أما رفض إعمال العقل المسلم، وعدم الثقة به، والدعوة إلى المتابعة العمياء، والتنكر للبحث والنظر وفهم السنن والوقائع، فهو خلط بين الإيمان والاستكبار يقود إلى العجز والضلال.

وقد خفف من إحساسي بألم الحيرة والعجز عن إشباع فطرة طلب المعرفة وكشف مستور الحقائق أنني كنت أتصفح في أحد مؤلفات أحد الأئمة الأعلام وأظنه ابن قيم الجوزية –إن لم تخني الذاكرة– فوجدته قد أثار تساؤلاً شبيهاً بهذا التساؤل، وأجاب عنه إجابة قريبة مما استقر في نفسي، وهو أن الثقة بقدرة الله وحكمته، ومحدودية إدراكنا البشري، كل ذلك يجعلنا في النهاية –إذا لم نهتد إلى جواب محسوس أو معقول مقنع– نفوّض الأمر لله ونحن على ثقة بحكمة بالغة فيه تخفى على منطقنا ومداركنا المحدودة القاصرة.

ورغم ذلك التخفيف بقي التساؤل قائماً في النفس دون جواب معقول مقنع، وإن كنت أعلم أنني قد لا أهتدي إلى حقيقته ووجه الحق فيه أبداً؛ لأنه ربما كان أبعد من قدرة إدراكي وحدود منطقي، ولكن ذلك لا يمنع العقل–بالطبع– من المراوحة حول ما لا يعتدي العقل إلى فهمه كلما تعلق الأمر به، أو دار البحث بشأنه من قريب أو بعيد لعله يهتدي فيه إلى جوابٍ أفضل.

شريعة النور

وفي محاولة التفكر في الأمر رجعت إلى مصدر الغيبيات والكليات، وهو القرآن الكريم فقد يجد المتأمل من الإشارات والإيحاءات ما يلقي الضوء على بعض جوانب مثل هذه القضايا، وعلى بعض طبائع المخلوقات وتفسير بعض علاقاتها، وفيما يلي حصيلة هذه المحاولة لفهم هذه القضية وسبر غور بعض جوانبها.

فنحن نعلم أن النور والنار والطين هي أحوال وأشكال مختلفة للطاقة التي يبدو أن العلم الإنساني حتى اليوم لا يدرك كنهها، ومن الواضح في القرآن الكريم أن النار المدمرة المتأججة أعلى وأرقى درجة وحالةً من

الطين الراكد الخامد، ولذلك استكبر إبليس المخلوق من نار وأبى أن يسجد لآدم المخلوق من طينٍ "قَالَ أَنَا خَيْرٌ منْهُ خَلَقْتَني منْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ منْ طينٍ" (الأعراف: 12).[5]

كما نجد القرآن الكريم يقرن النار دائماً بالضرر والعذاب "أُوْلَئكَ يَدْعُونَ إلَى النَّار وَاللَّهُ يَدْعُو إلَى الْجَنَّة وَالْمَغْفرَة بإذْنه" (البقرة: 221).[6]

وطبيعة النار تتصل بالنور، إلا أنها في حالة مدمرة، وقد تلقى إبليس –وهو من عالم الجنّ– أمر الله بالسجود لآدم، مثله في ذلك مثل الملائكة وحين عصى وتمرد غلبته الطبيعة التدميرية ونوازع الأذى لديه؛ فعصى أمر ربه، وإن الجن الذين هم من نار كان منهم المؤمنُ المطيعُ، كما أن منهم العاصي المستكبر. ولما كانت طبيعةُ إبليس طبيعةً ناريةً فإن تلك الطبيعة حين جنحت للعصيان تمردت واستكبرت عن أمر الله، واتجهت إلى الحقد على الإنسان، والإضرار به، وتوعُّده بالأذى، ودفعه إلى الضلال والخطيئة، ودفعه إلى الاتجاه الطيني المنحط وما ينجم عنه من أهواء قانون الغاب الحيواني وعنصريته وعدوانيته وشهواته.[7]

أما النور –وهو خير كله– فنجده صفة من صفات الله سبحانه وتعالى "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَات وَالأَرْض" (فاطر:24) ونجده صفة للحق والخير والهداية،[8] ووصف القمر المضيء والهادي بأنه نور، والشمسَ التي تبث الضياء والدفء –لا الأذى والدمار– بأنها ضياء وبأنها سراج،لا نار، نسبة إلى أثرها في حياة الإنسان؛ لأن الضوء والنور حالة للطاقة تعطي وتفيد دون تدمير، والسراج نار منيرة تبعث الضوء والنور، على عكس النار المدمرة، حتى إن نفعها لا يتأتى إلا من خلال طاقة التدمير والتحويل "هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا" (يونس: 5).[9]

---

5 أنظر أيضًا الآيات: (الإسراء: 61)، (الرحمن: 14–15)، (الحجر: 33).

6 أنظر أيضًا الآيات: (البقرة: 257)، (الرعد: 35)، (الأعراف: 12).

7 أنظر أيضًا الآيات: (الإسراء: 62–65)، (الحجر: 39–43).

8 أنظر أيضًا الآيات: (البقرة: 257)، (التغابن: 8)، (الشورى: 52).

9 أنظر أيضًا الآيات: (نوح: 16)، (الهمزة: 5–6)، (المعارج: 15–16).

أما الروح فهي من عند الله ومن أمره ونوره وهي تمثل جانب التسامي والكمال والخير في الإنسان، وُتْنسَب إلى الله جل شأنه "ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فيه منْ رُوحه" (السجدة: 9).[10]

ومن الواضح أننا قد أصبحنا أمام ثلاثة عناصر هي: النور (والروح في الإنسان تُرَدُّ إليه)، والنار، والطين:

- فالنور من الله، وهو مصدر هداية للإنسان، ومنه نُفِخَتْ الروح في الإنسان.
- والنار متأججة مدمرة، ومنها خُلقَ إبليس والجان.
- والطين راكد منحط القدر والمقام، ومنه خُلقَ جسم الإنسان وجميع دواب الأرض.

والمهم في بحثنا هنا هو جسم الإنسان المصنوع هو وجميع دواب الأرض من التراب وما لاحظناه في طبع هذه الدواب من ضرورة افتراس بعضهم بعضاً من أجل البقاء واستمرار الحياة والحفاظ عليها.

وإذا نظرنا إلى الإنسان وجدناه الكائن الوحيد –بين ما يدبُّ على الأرض– الذي نفخت فيه الروح وهو بذلك الوحيد الذي تلتقي فيه الروح النورانية بالمادة الكثيفة المنحطة الطينية، وهو أيضاً الكائن الوحيد بين ما يدبُّ على الأرض الذي وُجّه إليه نورُ وحي الشرائع الربانية النورانية لترشيد حياته وهدايته، على غير قانون الغاب الذي يحكم حياة الحيوان.

وإذا نظرنا إلى الإنسان وجدنا فيه جانب الإدراك والضمير والتسامي الذي يتعلق بالروح وشريعة النور جنباً إلى جنب مع الجسد وحاجاته المادية وما يتعلق به من الشهوات والسوءات والعورات التي تنزع بالإنسان إلى الطبيعة الطينية وشريعة الغاب الحيوانية الذي هو نَفْسٌ من نَفَسٍ، أي هو جسد من طين فيه حياة يميزها النَّفَس؛ ولذلك سُمّيَتْ نَفْسٌ يشترك بهما في الحياة مع الإنسان، "كُلُّ نَفْسٍ ذَائقَةُ الْمَوْت" (العنكبوت:57) إلا أن الإنسان يتميز بأن له روحاً "فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيْه منْ رُوْحيْ فَقَعُوا لَهُ سَاجديْنَ" الحجر: 29)، والحيوان في الحياة كالإنسان؛ فهو جسد من طين له نَفَسٌ وحياة تبقى ما بقيت الحياة ولابد للحياة والتنفس من أن ينتهي، وللجسد من أن يموت ويفنى، ولكن لا روح له، ولا إدراك، ولا ضمير؛

[10] أنظر أيضًا الآيات: (الحجر: 29)، (الإسراء: 85)، (النحل: 102)، (الشعراء: 193).

وتحكمه شريعة الغاب والطين المنحطة، حيث "الحق للقوة"، على غير حال الإنسان الذي تحكمه شريعة النور والروح، حيث "القوة للحق" ولذلك فإن الله تعالى يقول عن النفس الحيوانية في الإنسان: "إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوْءِ" (يوسف: 35) ويقول سبحانه عن الذات الإنسانية بما فيها من روح وطين: "هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْن فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ" (التوبة: 11-12) "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا" (الشمس: 7-8)[11] "فالحيوان يشترك مع الإنسان في الحياة؛ لكنه لا يشترك معه في الروح، ولذلك كاللذات الإنسانية تكوين وطبيعة وغاية وقانون يختلف كل الاختلاف عن تكوين الحيوان وطبيعته وغايته وقانونه، وإن اشتركاً في شيء منها، ففجور النفس مصدره فطري ويتعلق بالجانب الطيني الحيواني حيث الحق للقوة؛ وتقوى النفس مصدره فطري كذلك ويتعلق بالجانب النوراني الروحي حيث القوة للحق ودوافع الضمير.

وإذا نظرنا إلى الإنسان وجدنا فيه جانب الإدراك والضمير والتسامي الذي يتعلق بالروح وشريعة النور جنباً إلى جنب مع الجسد وحاجاته المادية وما يتعلق به من الشهوات والسوءات والعورات التي تنزع بالإنسان إلى الطبيعة الطينية وشريعة الغاب الحيوانية، فالنفس هنا بمعنى الذات الإنسانية تتكون من عنصرين هما: عنصر الروح النورانية، وعنصر النَّفْس (بسكون الفاء) من النَّفَس (بفتح الفاء) أي الحياة والجسد الطيني الذي يمثل عنصر الحاجات والنزعات والشهوات الحياتية الطينية ولذلك "زُيِّنَ للنَّاس حُبُّ الشَّهَوَات" (آل عمران: 14) وعلى الإنسان صاحب الروح ترشيد النفس الحيوانية "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّه وَنَهَى النَّفْسَ عَن الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هيَ الْمَأْوَى" (النازعات:40).

ولو أمعنا النظر في حياة الإنسان وغاياتها لوجدناها تتعلق دائماً بالصراع بين تطلعات الروح وأشواقها من القيم والمبادئ، والجسد وشهواته وحاجاته مالم تسمُ بها قيم الحق والعدل والجمال، يقول الله تعالى في محكم كتابه باسطاً في آيات كثيرة طبيعة هذا الصراع وما تحكمه من غايات ومقاصد وقيم وضوابط: "الَّذي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ" (الملك: 2).[12]

---

11 أنظر أيضًا الآيات: (الإنسان: 3)، (النازعات: 40).

12 أنظر أيضًا الآيات: (الانشقاق: 6)، (الإنسان: 3-6)، (المدثر: 40-47)، (المائدة: 91)، (المعارج: 29-35)، (المنافقون: 9)، (آل عمران: 14-15)، (المائدة: 32)، (الفرقان: 68)، (المدثر: 38-47)، (الماعون: 1-7)، (هود: 15-16)، (فصلت: 46)، (يوسف: 53).

وهكذا يوضح القرآن وشريعة النور أن الحياة الإنسانية صراع بين الروح والمبادئ والمعاني والقيم من ناحية، والمادة والهوى والشهوات من ناحية أخرى، حيث يلتقي التوجهان في ذات الإنسان وكينونته –خلال حياته الدنيوية– لقاءً فريداً، وينتهي هذا اللقاء إما إلى صفاء ونقاء وجنةٍ وخلود أبدي في النعيم، وإما إلى ظلم وباطل وفساد وإحباط وخسران وعذاب وجحيم وشقاء مقيم "إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم" (الانفطار: 13–14).[13]

في ظل هذه الصورة وهذا الصراع بين الروح والتسامي، وبين المادة والانحطاط والشهوات، نرى معنى الصراع المادي، ومعنى دورة الحياة، وما تمثله من مظاهر انحطاط الطين، وما يمثله من التظالم والافتراس والعدوان، وما يلحق بذلك الصراع من شرائع الغاب الطينية العدوانية المنحطة؛ حيث يطغى جانب القوة على جانب الحق في حياة الدواب والإنسان الضال، بصفته مظهراً من مظاهر الوجود المادي، وطبيعة الوجود المادي المنحط، وما يمثل هذا الوجود من صراعات في نفس الإنسان بين الروح النورانية والحيوانية الطينية المادية، وبين التسامي والضلال، وما يجره الضلال من الإخلاد إلى الأرض، بعكس أشواق الروح وشريعة النور التي ترتقي بالنفس الإنسانية في معاني الحق والخير.

كما أن جوهر المادة في انحطاط طبعها يمكن أن يفسر لنا معاني رمزية الطهارة المادية والمعنوية ومطالبها في حياة الفرد وممارساته وعباداته؛ من طهارة ووضوء وغسل، ونظافة وستر وزينة، وذكر وبسملةٍ عند الأكل، والتكبير عند الذبح، وعدم قتل أو صيد ما لا حاجة للإنسان إلى قتله أو صيده، ورعاية الدواب والرفق بها، والمحافظة على البيئة؛ بل لعله يفسر من بعض الوجوه كراهة بل تحريم أكل الحيوانات البرية المفترسة على الإنسان، والتي تشاركه الأرض، والمزودة بأدوات الافتراس، وهي الناب والمخلب، لأن أكلها فيما يبدو يجعل الإنسان ذا طبيعة افتراسية مركبة، مما يدخله في حلبة صراعات القوة الحيوانية، فيما هو أبعد من مجرد الاستجابة للحاجة المعيشية، ولعل أكل الإنسان وافتراس الحيوانات المفترسة لسواها من الحيوانات التي تشارك الإنسان اليابسة، ويتواصل وجوده وبيئته معها تجعل أكله لها يؤثر على سلوك الإنسان وطبيعته، ولعل ذلك بعض ما عنته الحكمة القائلة "قل لي ماذا تأكل أقلْ لك مَنْ أنتَ".

---

13 انظر أيضاً الآية: (الفجر: 27–30).

الفلسفة الداروينية

وهذا المنطلق والتصور يوضح فساد الفلسفة الداروينية الاجتماعية؛ التي هي في جوهرها فلسفة مادية ملحدة تنبني على فرضية ساذجة طفولية هي عشوائية الخلق، ولا ترى الإنسان إلا أنه حيوانٌ، أي طينٌ، خُلقَ هملاً وتطور عشوائياً، ولذلك فلا موضع في هذه الفلسفة لروحانية الإنسان التي تميزه عما سواه من خلائق الأرض بما له من إدراكٍ وروحٍ وضميرٍ، وأن معنى الحياة الإنسانية في هذه الدنيا هو هذا اللقاء بين الروح والطين، وما يمثله ذلك من صراع بين الروح والمادة، وبين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين النور والظلمة.[14]

فالفلسفة الداروينية الاجتماعية هي الفلسفة التي يقوم عليها الفكر الغربي المعاصر بعد أن تنكر للمسيحية في نظرته للإنسان والحياة والوجود، والتي تتمثل في عبادة المادة والقوة، والغلبة والقهر والافتراس، وما في ذلك من تجاهلٍ لجانب الروح في الإنسان، وإلغاء لجانب الحق والعدل والمسؤولية والنور، والذي يمثل ارتكاساً بالإنسان في طبيعة الطين المنحطة التي تمثلها شريعة الغاب والافتراس؛ بحيث أصبح الحق يعني الغلبة، ويكون للقوة، وأن البقاء للأصلح بمعنى الأقوى، وهو فكر تمكَّن من الغرب ومَنْ قلَّدهم وسار على دربهم. وفي الحقيقة فإن معاني الإنسانية والتراحم والتكافل والتسامي الإنساني فيما وراء الذات القومية العنصرية

---

14 إن فساد منطق الداروينية الاجتماعية العشوائية الملحدة لا يعني بالضرورة أن ننكر أن خلق الإنسان لم يتم ماديًا في تطور وانتقال من مرحلة إلى مرحلة إذا كان ذلك ما أراده الله له حتى سواه ونفخ فيه من روحه، بل إن القرآن الكريم فيه ما يشير إلى هذا التطور والانتقال من حال إلى حال حتى تمت تسوية الإنسان بشرًا سوياً، يقول الله سبحانه وتعالى: "الذي أحسن كل شيءٍ خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طينٍ، ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهينٍ، ثم سواه ونفخ فيهِ من روحِهِ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا تشكرون" (السجدة: 7-9) فمن الواضح – حسب منطوق هذه الآية وما تشير إليه بعض الحفريات والأبحاث العلمية – أن الله قدر خلق الإنسان على مراحل ثلاث: اثنتان منها مراحل حيوية وحيوانية فيها حياة ولكن لا روح فيها، مرحلة بدء خلقه الأولية ثم مرحلة الارتقاء الحيوانية التناسلية ثم المرحلة الثالثة والأخيرة التي سوى الله فيها أبانا آدم إنسانًا سويًا، ونفخ فيه من روحه، وهذه قضية في رأينا لا علاقة لها البتة بدعوى العشوائية الداروينية الساذجة، يقول الله تعالى "إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. "فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون" (يس: 82-83) أي إن إرادة الله سبحانه وتعالى تجري على الوجه الذي تعني حتمية النفاذ. وعلى هذا يوضح أن الإنسان ليس مجرد حيوان؛ بل هو كائن متميز بالروح التي تدفعه بما جبل عليه من العقل والإدراك والضمير، للتطلع نحو نور الحق ومصارعة شريعة الغاب العدوانية، وأيًا كان ما يقرره البحث العلمي عن الهيئة التي خلق الله بها الإنسان؛ فهي مقبولة عند المؤمن لأن ذلك يعني أمر الله وإرادته، وعلى المسلم طلب العلم والمعرفة التي لا يمكن في نهاية المطاف أن تتعارض مع الوحي المنزل من عند الخالق عز وجل "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبن لهم أنه الحق" (فصلت: 53) "قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الله الخلق" (العنكبوت:20).

تتلاشى بصور مختلفة مع هذا الفكر لتحل محلها روح الحيوانية والقسوة، وتسود معها أبشع أنواع العنصرية العدوانية الاستعمارية التي عانت منها –على يد الغرب– شعوبُ الإنسانية أنواع الظلم والقهر، كما يفسر ظهور القومية في الفكر السياسي الأوروبي الحديث التي وصل الأمر والعنصرية بها حدّ الإبادة في بعض الأحيان، كما حدث في الأمريكتين، وفي أفريقيا وأستراليا وبلاد الشرق الأقصى، وكما يحدث اليوم على أرض فلسطين.

إن شريعة الغاب هي شريعة الطين، وشريعة الافتراس، وشريعة الظلم، وشريعة العنصرية، وشريعة الاعتداء. أما شريعة النور كما جاءت بها الرسالات السماوية غير المحرفة فهي شريعة الحق، وشريعة العدل، وشريعة المسؤولية، وشريعة الإخاء والتراحم والتكافل، وشريعة التقوى وحفظ الأرواح، وأداء الأمانات وإنصاف المظلوم، وعدم الإسراف والفساد، دون أي اعتبار ذاتي أو قومي أو عنصري، والقوة في هذه الشريعة للحق على عكس مقولة شريعة الغاب التي تجعل الحقَّ للقوة، ولا مجال في علاقات الشعوب في شريعة الغاب لمقولات الحقّ والعدل لذاتها؛ ولكن بترتيب الحقوق، أو على الأصح المكاسب، بهدف التغالب وحلول الصراعات السياسية التي تقوم على قهر غلبة القوة، وما جرى للشعوب على يد الاستعمار، خاصة في أفريقيا وأمريكا، والذي ما يزال يجري على غراره بيد الصهيونية للشعب الفلسطيني الذي سُلبت أرضُه، وقُتل شعبُه وشُرّد، ودُمّرَت بلاده؛ بدعمٍ من الغرب وسلاحه وسياساته؛ والذي يبقى شاهداً محسوساً ملموساً على قيم شريعة الغاب الغربية المادية الطينية ومفاهيمها القائمة على الظلم والعدوان والكيل بمكيالين، والتي جرَّت –ولا تزال تجرُّ– على الإنسانية حتى اليوم من مظالم وويلات وحروب، وبما طورته من أسلحة دمار شامل، وذلك على عكس قيم شريعة النور ومفاهيمها وأسسها في الحقّ والعدل والرحمة والتكافل؛ فيكون الدرس المستفاد من هذه التأملات أن الإنسان يلتقي فيه سمو الروح والضمير كما يلتقي فيه انحطاط الشهوات والأهواء والطين، وإن الروح تدفعه نحو الحقّ والعدل، بينما تدفعه حيوانيته الطينية نحو الشهوات والأهواء والظلم والعدوان، ولكلّ واحدٍ من هذين القطبين شريعته؛ فشريعة قطب الروح والنور الإلهي تجعل القوة للحق وتحض على الخير والعدل، أما شريعة الطين فحيوانية الغاب، وعدوانيته، وهي تجعل الحقَّ للقوة، وإن إنسان شريعة الغاب الطينية المادية يكون مجبولاً على الغلبة والعدوان والظلم.

ولذلك نجد الغرب حين انحرف عن شريعة النور وشوهها وأنكرها، وأخلد إلى الأرض خيَّم –عند ذلك على فكره– الضلالُ، فأنكرَ بذلك جانبَ الروح وقيمَ الروح وغاياتها، وتلبَّس حيوانية الطين المنحطة، وارتد إلى ظلمة الجاهلية، وأصبحت شريعتُه شريعةَ الغاب الحيوانية العدوانية العنصرية الاستعمارية؛ التي تعطي الحقَّ للقوة، فانهارت في مجتمعاته الأخلاق، وفشا العنف والعنصرية، وفشت الفواحش وانهارت الأسرة، وأصبح لا مجال في تعاملاته مع الأمم الأخرى لاعتبارات الحقّ والعدل، وإنما الاعتبار كل الاعتبار للقوة التي تفرض الأمر الواقع، لابقوة الحق، بل بحق القوة، وباسم دعاوى السياسة والحلول الوسط والأمر الواقع؛ والمصالح القومية، التي يفرضها منطق القوة، وأصبح التظالمُ فكراً وسياسةً ومهارةً، ولاموضع فيها –على الحقيقة– للحق والعدل، لأن دليل شريعة الغاب وغايتها هو القوة والمصالح القومية ومطامعها الأنانية، وقد وصف الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الجاهليين الهمجيين أتباع شريعة الغاب، وهو ما تمثلته في هذا العصر ما اقترفته الشعوب الغربية من الممارسات الاستعمارية غير الإنسانية ضد شعوب آسيا وأفريقيا والأمريكتين، وهو عين ما نراه حتى اليوم من سياسات وممارسات الغرب ضد هذه الشعوب، ولاسيما ما يجري على مدى قرن من الزمان من الممارسات الاستعمارية الاستيطانية من قبَل الصهيونية العنصرية المدفوعة والمدعومة أيضاً من قبَل الغرب ضد الشعب الفلسطيني، والتي تهدف –وبوحشية فاشية حيوانية– إلى إبادة هذا الشعب؛ فقتلت منه مئات الألوف، وهجَّرت منه الملايين، وهي تعمل اليوم بوحشية غير مسبوقة على قتل من بقي منهم، وتهديم حياتهم، وإخراجهم من أرضهم وديارهم بمختلف الوسائل الدموية، دون أدنى مراعاة لأية عهود أو مواثيق دولية، أو لأي حقٍّ من حقوق الإنسان، والتي لانرى أنها تُحتَرَم على وجه الحقيقة إلا بشأن العنصر الغربي وأداته الصهيونية ورعايا دولهم ومصالحهم الاستعمارية التسلطية، يقول الله تعالى في وصف الجاهليين أتباع شريعة الغاب في عهد تنزيل الرسالة وفيما بعد عهد تنزيل الرسالة في سورة التوبة: "كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوْا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوْا فِيْكُمْ إلاً ولا ذمَّةً، يُرْضُوْنَكُمْ بأَفْوَاههمْ وَتَأْبَى قُلُوْبُهُمْ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسقُوْنَ" (التوبة: 8) إلا أنه يجب ألا يغيب عن البال أن هذا تقويم للثقافة والفكر والحضارة الغالبة والتوجه العام للغرب في العصر الحديث، الذي يرسم سياساته ويحدد توجهاته العنصرية الاستعمارية التي تبرر المظالم، وتدفع إليها، وتتقبلها بقحة وفجاجة، وتجعلها تكيل –بلا مبالاة– بكيلين، وليس تقويماً للأفراد ولا للفئات التي تتعدد اتجاهاتها وتختلف؛ لكنها في النهاية وإن تعددت واختلفت إلا أن حجمها وتأثيرها لا يغير من التوجه العام الغالب في

المجتمع، وعلى الرغم من ذلك فإن بعض هؤلاء الأفراد وهذه الفئات التي ما تزال تتمسك بقيم النور يمكن أن تصبح في المستقبل بذوراً للإصلاح والهداية والخير.

إنه لا يمكن فهم العقلية الغربية المعاصرة وسياساتها النفعية التي تتسلط بها على الشعوب الضعيفة التي تكيل فيها لمصالحها الأنانية بأكثر من مكيال، كما لا يمكن أن يفهم لماذا نشأت وسادت فكرة القومية nationalism التي هي الوجه الآخر للتضامن العنصري الحيواني الذي ينطلق من منطلق القوة والغلبة وافتراس الآخر، في هذه الفترة من تاريخ الغرب بالذات؛ الذي كانت القومية هي أحد معالمه الإيديولوجية البارزة، كما لا يمكن أن تفهم سيادة فكرة سياسات القوة power politics والسيطرة الاستعمارية التسلطية التي تلحق المبادئ بالأسلاب والمكاسب -التي تدعى المصالح- والتي تعرف في مجال الافتراس الدولي بالمصالح القومية، كما لا يفهم هوس الغرب بالتسلح واحتكاره وتطوير أسلحة الدمار الشامل وفرض السياسات والمصالح الظالمة وإعاقة نموّ الشعوب والعمل على استلابها واستلاب مواردها، والحيلولة دون تحررها الاقتصادي والثقافي، كل هذا لا يفهم إلا أن يُفهَمَ مدلول تخلي الغرب عن شرائع النور السماوية التي حُرّفَتْ في دياناته، والتي تجعل -في أصلها غير المحرف- القوةَ للحقّ، وتلحق المصالح والمكاسب بالمبادئ على عكس قانون افتراس الغاب الذي يجعل الحق للقوة، ويلحق المبادئ بالمكاسب والمصالح؛ فيغلب بذلك انحطاط الطين ونوازعه على سمو النور وأشواق الروح.

وحتى نفهم الأمور التي يصعب فهمها في فكر الغرب وسلوكه، وفي فكر المسلمين وسلوكهم، يجب علينا أن نفهم الشرائع التي يتبعها كل فريق، ونفهم توجهاته العقدية والمفاهيمية. فإغراق الغرب في المادية والنهم المادي، وجعله المادة غايته التي يلهث وراء الحصول عليها والاستمتاع بها، وإغراقه في الجانب الاستهلاكي الذي يبدو أنه غير قابل للشبع؛ لا يمكن فهمه انطلاقاً من المرتكز الديني المسيحي؛ بل من الممكن فهمه إذا ما تذكرنا أن الغرب قد تخلى عن روحانيته لأسباب تتعلق في بعض جوانبها بما أصاب أصل رسالة النور المسيحية -واليهودية من قبل كذلك- من تشويه وتحريف؛ ولذلك تلبَّس الغرب -في عمومه- شريعة الغاب وطبيعة الحيوان الطينية المنحطة، حيث المادة والحياة هي غاية السعي والوجود الحيواني، لا غاية ولا هدف ولا سعي فيما وراءهما "...أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُوْنَ" (الأعراف: 179) "...وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا يَتَمَتَّعُوْنَ

وَيَأْكُلُوْنَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوَىً لَّهُمْ" (محمد: 12) فغابت في الغرب شريعة النور وأصبحت حاجات الحيوان المعيشية المادية هي الغاية، ولا غاية وراءها، وهكذا أصبح من الطبيعي وقد تخلى الغرب عن شرائع النور، ونظر إلى الإنسان على أنه حيوان، أن تصبح المادة والحاجات المعاشية غاية وجود الإنسان الغربي التي لا غاية له وراءها، و يوضح القرآن الكريم لنا حال ما انتهوا إليه وطبيعته وغاياته ومآله:

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْنَاهُ آيَاتنَا فَانْسَلَخَ منْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ منَ الْغَاوِيْنَ، وَلَوْ شئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بهَا وَلَكنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْض وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَل الْكَلْب إنْ تَحْملْ عَلَيْه يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلكَ مَثَلُ الْقَوْم الذيْنَ كَذَّبُوا بآيَاتنَا فَاقْصُص الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ. سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذيْنَ كَذَّبُوْا بآيَاتنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوْا يَظْلمُونَ. مَنْ يَهْد اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدي، وَمَنْ يُضْللْ فَأُولَئكَ هُمُ الْخَاسرُونَ" (الأعراف: 175-178).[15]

أما بالنسبة للمسلمين الذين ما يزال ولاؤهم لشريعة النور؛ ورسالة الإسلام التي حفظها القرآن الكريم، ما تزال ساكنة ومستقرة في قلوبهم، وما تزال نفوسهم متمنية أن تجد القدرة على التلبس بها، فإن نفوسهم قد توزعت من ناحية بين ما يسكن في قلوبهم وضمائرهم، ويجعل المادة وسيلة لغاية خيّرة أعظم تتمثل في السعي بالحق والعدل، وتجسيد ذلك في واقع الحياة، واستخدام الحياة والطين والمادة وسيلة إلى تحقيق معاني النور وقيمه وغاياته ومقاصده، وتجسيدها؛ فيسمو الإنسان بذاته وبالمادة وتكون المادة حينئذٍ وسيلة نورانية خيّرة. ومن ناحية أخرى بين رغبتهم – على شاكلة فكر الغرب ومفاهيمه – في الحصول على الوفرة المادية المعيشية وما يصحبها من المتع والراحة، ولكن جهودهم بسبب غبش الرؤية بشأن المادة وسيلة أو غاية ما تزال تمنى سعيهم بالفشل، وما تزال شعوبهم لا تستجيب لهم، ولا تتحرك فيها كوامن العزم والطاقة.

ولو أننا فهمنا ذاتنا ومنطلقاتنا وبناء ضمائرنا، وعرفنا المفاهيم والمنطلقات التي تحرك وجداننا؛ لأدركنا أن الضمير المسلم لا يمكن أن يقبل بالمادة والحاجة المعاشية لتكون غاية له، ولذلك نجد المسلم على الرغم من غبشه العقدي والفكري، وعلى الرغم من إقباله على تقليد الغرب في سعيه وتعلقه بالمادة والحاجة المعاشية

---

15 انظر أيضاً الآيات: (الفرقان: 43-44) (محمد: 12-14) (الروم: 29-30) (الروم: 7-12) (الشورى: 20) (آل عمران: 178) (الكهف: 58-59) (مريم: 75-76) (لقمان: 23-24).

المادية غاية له؛ إلا أنه يظل غير مقتنع بأن المادة هي الغاية، ولا يمكن للأمة المسلمة أن تجعلها في أي يوم من الأيام غاية للحياة –وإن كان لابد منها للحاجة المعاشية– وذلك لأنها ليست أصلاً في عقيدة المسلم وضميره غاية وجوده، ولذلك كان الإنسان المسلم وسيظل فاتر العزم، متردداً في متابعة الغرب وتقليده، إذ لا قوة ولا عزم دون رؤية واضحة وغاية محددة.

من الواضح هنا أن المسلم يجب أن يكون أكثر جدية في تعامله مع المادة والأخذ بأسبابها؛ لتحقيق قيم الخير وغاياته، وتجسيدها في رحلة الحياة، لأنه دون المادة لا يمكن تحقيق تلك الغايات، ولا تجسيد تلك المقاصد والقيم، والمادة حين تجسد معاني الخير والحق والجمال وشريعة النور فإنها تسمو وتصبح خيراً ونعمة ورقياً حسناً، أما إذا أصبحت غاية في حدّ ذاتها، وأصبحت تجسيداً لغايات شريعة الغاب والظلم والعدوان والعنصرية والشرك والإلحاد فإنها تكون عند ذلك خداعاً وسراباً وهوىً وشهواتٍ، يقول الله سبحانه وتعالى "وَلكُلٍّ وجْهَةٌ هُوَ مُوَلّيْهَا فَاسْتَبقُوْا الْخَيْرَات" (البقرة: 148).[16]

ويقول الله سبحانه وتعالى "وَابْتَغ فيْمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخرَة وَلا تَنْسَ نَصيْبَكَ منَ الدُّنْيَا وَأَحْسنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ وَلا تَبْغ الْفَسَادَ في الأَرْض إنَّ اللهَ لا يُحبُّ الْمُفْسديْنَ" (القصص: 77).[17]

فإذا أراد المسلم أن ينجح في السباق الحضاري للأمم فإنه لا بدَّ له من أن يفهم منطلقاته العقدية دون غبش، وأن يتعامل مع المادة والحاجة المعيشية بصفتها وسيلة من أجل تحقيق غايته الأبدية الكبرى في بناء حضارة الحق، وتجسيد مجتمع التعاون والعدل والفضيلة والتكافل الإنساني الصادق، وإلا فإنه لن ينجح في مسعاه في هذا السباق الأممي، ولن يفلح في بناء حضارة الحق، وتمكين شريعة النور، وتحقيق عيش الأتقياء القادرين الشرفاء.

عندما لا تعرف الأمم ولا يعرف قادتها منْ أهل الرأي الفكر ذواتهم، حقيقة وجهتهم وشرعتهم، فإن أمرهم حينذاك أشبه ما يكون بحال التائه في الصحراء؛ الذي لا يحدد لنفسه وجهة واحدة يسير في اتجاهها

---

16 أنظر أيضًا الآيات: (النساء: 66) (سبأ: 13) (الصف: 3).

17 أنظر أيضًا الآيات: (المزمل: 20) (البقرة: 215) (آل عمران: 30) (الإسراء: 35) (البقرة: 172) (النحل: 114) (الأعراف: 32–33) (النازعات: 33) (لقمان: 20 – 33) (النازعات: 33) (إبراهيم: 32 –33) (النازعات: 33) (لقمان: 20–21) (الشعراء: 73) (الأعراف: 31).

بقوةٍ وعزمٍ، لأن التوجه الحاسم الجازم في الصحراء –ضمن الظروف التي يمر بها غالباً– هو الذي يمثل الأمل الوحيد له في النجاة، حيث إن جلَّ من يهلكون في متاهات الصحارى هم من أولئك الذين لا يقررون لأنفسهم وجهة واحدة يمضون باتجاهها، ويظلون يغيرون وجهتهم، بسبب الحيرة والتردد بين وجهة وأخرى، حتى ينتهي بهم التيه إلى دوائر من الضياع والهلاك.

وإن عدم وضوح رؤية الأمة، وانبهار مثقفيها بالغرب وتقليده، دون فهم ما يقلدونه، ودون نقد جيّده من رديئه، وطيّبه من خبيثه، مع حيرتهم وترددهم بين الأخذ بما لديهم أو الأخذ بما لدى الآخرين، من أهم أسباب فشلهم وتخلفهم؛ فهم لا يأخذون الحياة والسعي بقوة وعزم، وذلك هو أكبر المخاطر أمام الأمة ونهضتها، وأشدها إعاقةً لحركة الإصلاح فيها، لأنها تحول دون تفجير طاقاتها، وانطلاقها مسيرتها، وتحد من قدرتها، وتقف حجر عثرة أمام تمكينها من أداء رسالتها الإنسانية الخيّرَة.

إن رسالة الإسلام السماوية مازالت كما وعد الله محفوظة –في القرآن الكريم وفي صحيح سنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم– غير محرفة، ومازالت الإنسانية في أشد الحاجة إلى هديها، بل إن الإنسانية اليوم بقواها الحيوانية المدمرة في أشد الحاجة من أي وقت مضى إلى هديها، مما يضع على كاهل الأمة الإسلامية مسؤولية أكبر من مجرد مسؤولية إصلاح أمرها واستعادة تمثُّلها لرسالة إسلامها، حتى تتحقق فيها مسؤولية إصلاح الحضارة الإنسانية واستنقاذ شعوبها من بين أنياب شريعة الغاب وما تحمله في طواياها من آفاقٍ أبعد وأخطر من الفساد والدمار الذي إن تُرك دون مراجعة وإصلاح فإنه حتماً سيقود الإنسانية بروح حيوانية عنصرية عدوانية إلى الخراب والدمار، وما جرى في القرن العشرين، وما افتتحت به الصهيونيةُ والغربُ القرن الحادي والعشرين من الحروب، وما تنبئ عنه آفاقها، للمسلمين خاصة وللإنسانية عامة، هي نذير بالمخاطر العظمى التي يجب أن يتصدى لها عقلاء الأمم قبل فوات الأوان.

إن وضوح رؤية المسلم لطبيعته الإنسانية وما فيها من صراع بين الروح والطين، والنور والظلام، والحق والباطل، والعدل والظلم، ومن تربص إبليس، هو أمر أساس لإصلاح الذات، ومواجهة الغرب ومظالم شريعة الغاب، والتعامل الإيجابي الفعال معها، وطلب القدرة العلمية التكنولوجية، والتمكن منها، والعمل –في الوقت نفسه– بالتعاون مع كل عناصر الخير والسلام والأمن الإنساني على إقامة مجتمع دولي تسوده شريعة

النور والحق والعدل، لا شريعة الغاب العنصرية الظالمة؛ التي جرت الإنسانية إلى الحروب العالمية والإقليمية والمحلية المدمرة.

إن على المسلم وأتباع شرائع النور السماوية معرفة أنهم في مواجهة شريعة الغاب الحيوانية الطينية، وأن على أتباع شريعة النور إصلاح ذواتهم، واستنقاذ أنفسهم، واستنقاذ الإنسانية معهم.

إن خلاص الإنسانية التي تلغ اليوم في دمائها مخالب شريعة الغاب، وتمزقها أنياب قوى الغشم والتسلط الاستعماري وتتفجر فيها ردود الفعل العنيفة بسبب مظالم الروح العنصرية الحيوانية في السياسات الدولية للدول الغربية؛ لا يكون إلا بإدراك الدرك الحيواني الأسفل الذي انحدرت إليه الإنسانية المادية، وحتى يمكن أن تتنبه الإنسانية والحضارة لمخاطرها ومظالمها، وأن تعمل جاهدة من أجل أن تستعيد روحها، وقيم هذه الروح، وغاياتها، وتستبدل شريعةَ الحقّ والعدل والنور بشريعة الغاب والظلم والفساد المرذولة وتتخلى عنها قبل أن تدمرها صراعاتها الدموية المادية الحيوانية، إن خلاص الإنسانية لا يكون إلا على أساس قيام مجتمع إنساني دولي حقيقي يقوم أساس فلسفة الإسلام في وحدة الإنسانية في دوائر متداخلة وليس على أساس القوميات والعرقيات وشريعة الغاب التي تجعل الأمم حيوانات متصارعة وحراب متقابلة.

لقد أنشأ الغرب الدراسات الاستشراقية بهدف فهم الشعوب الأخرى، إلا أن ذلك قد تم بروح قانون الغاب واستلاب تلك الشعوب، وفهمها بهدف افتراسها واستعمارها وقهر شعوبها وتسخيرها لأهوائه ومطامعه، ولعل هذه الشعوب ومفكريها ومثقفيها يكفُّون عما يمارسونه من العجز والتراخي، وعليهم أن ينشئوا في بلادهم الدراسات الغربية التي تكرس جهودها لدراسة الغرب والفكر الغربي، ودراسة طبيعته ومنطلقاته؛ حتى يمكن فهمه والتفاعل القادر معه، وتوجيهه وجهة خَيّرةً لمصلحة شعوب الإنسانية كافة والتي تهددها سيادة نزعات شريعة الغاب العنصرية القومية العدوانية؛ بغض النظر عن أنواع التمويه والتدليس الدعائي الإعلامي المقصود به تضليل الجماهير، وتسهيل مهمة القهر والتسلط والاستلاب من قبَل التجمعات والاتحادات القومية العنصرية الاستعمارية الكبرى التي اكتمل هلالها الرهيب وأصبح يحيط بالأمة ويسيطر على مقدرات العالم الإسلامي والأفريقي، ويمزقهما أوصالاً.

وقد يتوهم بعض الناس أنّه يمكن بالوسائل الدعائية والدبلوماسية التي يمارسها الضعفاء إقناع الغرب بانتهاج سياسات عادلة متوازنة تكفُّ عنهم المظالم الاستعمارية والجرائم الصهيونية، لكنّ أي تأثير من هذا النوع هو استثناء ومحدود ووقتي لا يعتدُّ به، والأسلوب الوحيد الذي يمكن أن يكون له تأثير على سياسات هذه الدول بالوسائل السلمية في الوقت الحاضر هو الجهود السياسية للمواطنين المسلمين من أبناء الغرب نفسه ومن المؤمنين ببقايا النور في الرسالات السماوية، ومن يؤازرهم من المضطهدين وأصحاب الضمائر الحية.

وإذا ما عرف المسلمون طريقهم، وإذا ما صدقت جهود الإصلاح، وصحَّت بها عزائمهم في الدعوة إلى الله في بلاد الغرب فلعل ما بقي في النفوس من الفطرات السليمة يعين على إعادة هذه الشعوب إلى طريق النور والعدل، وليس ذلك على الله بعزيز. ولا مخرج للعالم الإسلامي والأفريقي مستقبلاً حتى يحرر نفسه، ويسترد حقوقه وكرامته، ويسهم في عطاء الحضارة الإنسانية، إلا أن يقف على قدميه بقدرةٍ واقتدارٍ، ويكون نداً داعماً لقوى الخير والإصلاح.

إن موضوع دراسات الغرب وفهمه في غاية الخطورة ولا بد من البدء به دون أي تأخير. وقد بدأت الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا منذ سنوات بخطوة في هذا الاتجاه؛ وذلك بإنشاء تخصص جزئي Minor Specialization في الدراسات الغربية؛ بهدف بناء قسم وتخصص رئيس في الدراسات الغربية لفهم الغرب وفكره ومنطلقاته وطرق التفاعل الإيجابي معه نحو شراكةٍ إنسانيةٍ عادلةٍ تقوم على أسس الحق والعدل ومن منطلقات شريعة النور لا شريعة الغاب. والمأمول أن تكتمل خطة عمل الجامعة وأن تحذو جامعات الدول الإسلامية والعالم الثالث حذو الجامعة الإسلامية العالمية وأن تنشئ المراكز العلمية والبحثية في مجال الدراسات الغربية لبناء أساس سليم وفعال لحوار الحضارات وتكاملها لا صراع الحضارات وتظالمها.

ولكن على المسلمين أن يتذكروا أن ما أضاعهم هو تضييع قيم الحرية والشورى والتسامح والإخاء الإسلامي، والإخاء الإنساني، وقيم حرية العقيدة والضمير والرأي، وبالتالي ضياع حقوق الإنسان وكرامته، ليحل محلها قيم الاستبداد والجور والعنصرية والعرقية القبلية والشعوبية والطائفية، ولتغرق الأمة في أوحال

التناحر والتظالم والتخلف. وإن على الأمة أن تعيد تأهيل ذاتها باستعادة قيم الحرية والشورى والتسامح والإخاء؛ حتى تتمكن من استعادة قدرتها ووحدتها واستقرارها؛ فتكون بذلك الرائد والقائد إلى الخير والسلام.

التقاء الروح والمادة

أما لماذا التقى عالما الروح والمادة في الإنسان؟ وما دلالة هذا الصراع بينهما والذي يرتقي به بعضهم – بما كسبت أيدي العاملين– إلى أمان الصفاء الروحي والنعيم الأبدي، فيما ينحط به بعضهم الآخر –بما كسبت أيدي المجرمين– إلى الشقاء والعذاب المقيم؟ وما دلالة هذا الصراع الذي به تكدح الأرواح في صراعها مع الأهواء والشهوات؟ كل هذه الأسئلة لا تسهل الإجابة عنها، ولكننا نعلم أنه من خلال هذا الكدح تُعَبّدُ النفوسُ ذواتها، فتهتديَ بالنور إلى الحق. إن الإنسان وهو النفس المخلوقة لا يمكنه أن يكون قادراً –بشكل مستقل– على أن يقطع مفازة الحياة، ويدرك غاياتها، دون تبصير وهداية على حمل مسئوليته وتحقيق غاية وجوده، وهو أمر يحسّه الإنسان في دخيلة وعيه وصميم ذاته، وعليه أن يجعل حمل مسؤوليته الخيّرة غاية حياته، وهمها الأكبر.

كل هذه أسئلة لابد من أن تخطر بشكل واع أو بشكل غير واع في ذهن الإنسان، وأن يراوح التفكير فيها. وعلى الرغم من أن مثل تلك القضايا تبدو أبعد من إدراك منطقنا البشري ومع ذلك فإنه يبدو أنه يمكننا أن نتبين بعض المعاني ذات الدلالة في لقاء الروح والنور مع المادة والطين، في كيان الإنسان، والغاية منه، وهو ما يجعل الإنسان ذاته ساحةَ الصراع بين النور والظلمة، وبين الخير والشر، وبين الروح والمادة. فنرى من خلال هذا اللقاء والصراع والتدافع كيف يتجسم النور والحق والعدل في المادة الطينية، وكيف يجسّمُ الطين معاني الخير والحق والجمال ويبرزها في صور مادية طينية، ونرى بذلك معاني النور والحق والعدل والرحمة تتجسد حقيقة مادية، وكيف أن المادة والطين يتساميان بتلبس معاني النور والحق والعدل والجمال، وتجسيدها في حياة الناس وممارساتهم في صور حية مادية.

إلى جانب صور الخير المحسوسة الملموسة لهذا اللقاء بين النور والروح والطين لا بأس من الإشارة إلى بُعْد الجمال في الحياة الإنسانية الذي يتحقق من خلال لقاء الروح والمادة فيما نشاهده من ألوان الجمال حين يتجسد الجمال في المادة الطينية فيحيل المادة والطين الخامد المهين ليصبح أجساماً وأشكالاً وألواناً

وزهوراً وطيوراً وحدائق وجنات، ومن ذلك جمال الإنسان ذاته الذي يمثل ساحة من أروع ساحات هذا اللقاء بين النور والطين؛ فأجمل الأجسام، وأجمل القسمات وأجمل الأحداق إنما هي في جوهرها معانٍ وخطوطٌ ودلالاتٌ تحققت حينما ارتسمت وتجسَّدت في المادة الطينية المنحطة، فيأخذ الجمال وأشواقه ومعانيه بالألباب، ولو أمعنا النظر ودققنا في تلك الصور والمجسمات والأجسام والحدقات الجميلة؛ لأدركنا أنها معانٍ ما كان لنا أن ندركها لولا أنها تجسدت في المادة والطين، على الرغم من أن الطين مادة مهينة تتبدى حقيقتها حينما تتحلل وتذوب، أو حينما تصبح الأجسام جيفاً كريهة، وترجع طيناً من حمأٍ مسنونٍ، وتنمحي عنها خطوط الجمال وتفارقها؛ لتصبح قطعاً من طينٍ عفنٍ، وحفناً من تراب مهين، فما أروع الطين حين يلتقي بالنور ويجسد معانيه في الخير والجمال، وما أروع النور وهو يتبدى من خلال المادة والطين.

خاتمة

ليست هذه التأملات في معاني الخلق وغاياته وغايات علاقاته في تصوري من باب فلسفة الإلهيات التي تخوض بالظنون في عالم ما وراء المادة دون مرشد ولا دليل غير دليل استكبار العقل وعدم معرفة حدوده، وهو ما عانت وما تزال تعاني منه الأمة والإنسانية حتى اليوم، وما يكون قد عناه الإمام أبو حامد الغزالي في "تهافت الفلاسفة" وما تلمسه في ضلال الضالين وإلحاد الملحدين ومكابرة الجاهليين.

فالتأمل المنضبط بإدراك حدود العقل ومنطق الإنسان هو في تصوري من باب جدية التدين، ومن سُبُل ترسيخ الإيمان، ولعل ذلك ما قصد إليه ابن رشد في "تهافت التهافت"، وضرورة سعي العقل بالتفكر والتأمل، وترسيخ الإيمان، وفهم الرسالة، وتوسيع آفاق العلم والمعرفة وتعميقها، وعلى كل حال فإن كتاب النور المنزل هو مصدر هذه التأملات، وهدايته غايتها والقصد منها، يقول الله تعالى: "قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي" (البقرة: 260).

وأرجو أن أكون قد وُفّقْتُ في هذه الورقة إلى توضيح طبيعة الأمة المسلمة وطبيعة غاياتها ووجهتها وشرعتها، وأهمية جهودها في سبيل إسلامية المعرفة ووحدتها واهتدائها بثوابت شريعة النور التي هي حقيقة موضوعية في الوجود، وتقوم على أساس التوحيد ووحدة الإنسان، وتجعل القوة للحق. وأن أكون قد قدمت ما يعين على فهم الغرب المعاصر، لفكره ووجهته وغاياته، وبسياساته التي تنبني على شريعة الغاب وتقوم

على أساس التمايز وتعزيز العنصرية والعرقية والقبلية والشعوبية والقومية، وتجعل الحق للقوة، وتنصاع لأهواء الطين ونزواته وشهواته، وتجعل الحقيقة قضية نسبية لا أصل لها في الحقيقة والوجود بل تقررها الأطماع والأهواء والنزوات والشهوات، وتعتمد في بلوغ أهدافها على التظالم والعدوان.

ولعلي بذلك أن أكون قدمت دليل عمل ورؤية تعيد إلى الأمة المسلمة فهم المعاني المستقرة في وجودها، وبيان جوانب الحق في رؤيتها، وإدراك مدى الطاقات الكامنة في عزيمتها. ولعلّ في هذا البيان أيضاً ما يعين الآخر –ولاسيما الغرب الذي استمرأ شريعة الغاب– على فهم ذاته والرجوع عن غيه وضلاله، وأن يضع حداً لعدوانه وتعدياته، وأن يزيح بذلك عن كاهل الإنسانية ما تعاني من المظالم والمآسي ليسود العدل والإخاء والوئام بين البشر.

وبالله التوفيق والهداية، وهو نعم المولى ونعم النصير.